تنازع العاطفة والعقل

ولدت «سوزان تيولا» في القسطنطينية سنة ١٨٦٣، ثم رحل أهلها إلى الجزائرفلما بلغ عمرها ثماني عشرة سنة تزوجت برجل يشتغل بالبراميل واسمه «توسان فلوري» وهو رجل طيب، ولكنه لم يستطع أن يقضي حاجات زوجته بمجامعها، ولا أن يمهد لها أكناف السعادة فهجرت المرأة دارها.

وفي سنة ١٨٨٦ توفي زوجها «فلوري» في الجزائر فرملت «سوزان»من زوجها و لم يخلف لها مالاً، ولكنه ترك لها ولداً صغير اسمه الياس، وهو اليوم محرر مقاولات في لانيون «فرنسة»فعزم الزمان على سوزان من ذاك اليوم واشتدت عليها الحياة، و لم تعرف حرفة تحترفها، ولكنها مطبوعة على اليسير من الجرأة، ولها منظر حسن ووجه لطيف، فاندفعت في حياة اللهو، واشتغلت في المقاهي وتعرفت في مدينة «بون» إلى السيد روجه لرو«الكونت دي كرنينون» وقد كان يومئذ يؤدي الخدمة في جيشٍ إفريقية، فصاحبها الكونت «دي كرنينون» فألفت بعد هذا الزواج نمطاً حديثاً من الحياة واشتدت ثقتها بالغد وضمن لها رغد العيش، إلا أنه ما لبث أن نشأ بين الزوجين ما أدى إلى اختلافهما... فقد نزع بالكونت حنينه إلى وطنه «بريتانية» وأحب أن يعيش عيشة الهدوء في قصره في (بلولاش) ولكن هذه العيشة البعيدة عن ضوضاء الحياة لم تطب للكونتيسة التي تعودت عيشة الاضطراب والمقامرة، وألفت فتنة المدن الكبرى فانقاد الكونت لمشيئة زوجته لأنها غلبت على عقله ولبه،

فكانا يعيشان في باريس والجزائر ونيس ولم يقضيا في القصر إلا شهرين من الصيف.

أجل انقاد الكونت لمشيئة زوجته بمقادار ٥٤٧ ألف فرنك من ملكه وأراضيه فكانا يتقلبان في الترف والنعم، وينفقان من دون حساب، وكانت الكونتس تقامر فيغلبها المقامرون، وقد اضطر الكونت إلى أن يستدين ١١٤ ألف فرنك لنفقاته الخاصة، وقد كانت طلبت الكونتس إلى زوجها أن يسعى في تقليد ابنها الذي تزوج فتاة لا مهر لها رتبة من الرتب فأصبح هذا الولد بفضل الكونت محرر المقاولات.

فلما رأى الكونت أن الشقاوة انحدرت إليه من داره وحاشيته، ولم تشكر زوجته نعمه عليها، ولما رأى مالا رأته عليه من السلطان، وقد خالجه الشك في أمرها، ولم يجد فيها الميل الذي كان يأمله ويتصوره، بحث عن صاحبة تشاطره نعيم الحياة وبؤسها فاهتدى إلى بنت من بلده اسمها (برناردين ندلك) فأصبحت صاحبته وأمينة سره، فعلمت بذلك الكونتس من سنة ١٩٢٢ أي من مبدأ الصلة، فحنقت على هذه الدخيلة بعض الحنق، ونسبت إليها مصيبة زوجها في ماله، وقد أفضى بها الحنق إلى التهديد فكتبت على جلد دفتر لها ما يلي: إلى زوجي وقاتلي الكونت دي كرينينون.

وفي هذا الدفتر بعض خواطر تدلك على مبلغ عواطفها:

لا مرحباً باليوم الذي صادفتك فيه في سبيلي، إنك كاذب ولا قلب لك، لم تنفع في حياتك أحداً، روجه! أنت الذي انقذني وأنت الذي ستقتلني، ماهذه الحياة!

أنت تخرج من عندي لتذهب إليها، إنك لا تستحق الحياة، لو أردت لقدرت على قتلها، وهذا أمر يسهل علي لأني أعرف أين هي.

لعنة الله عليك أيها الخائن، الكاذب الخبيث كلما قلت إن لي في قلبك محبة.

* * *

أقام الكونت في مبدأ تموز سنة ١٩٢٤ (بلانيون) عند محرر المقاولات، ولد زوجته، فاغتنم الفرصة لقضاء بعض أشغاله، ثم ذهب ليفي الدين المعقود سراً الذي تقدم الكلام عنه، فلا يجوز أن تكون الكونتس علمت من ذاك التاريخ بالديون التي كان زوجها يستدينها ويفيها من دون علمها، وقد يجوز أن يكون في هذه الديون سبب من الأسباب التي ستحملها على قتل زوجها.

تغدى الكونت وزوجته في ٢١ آب ثم نهضا بعد الغداء إلى غرفتهما، فدوى الرصاص في الغرفة، فأهرع القوم فخرج الكونت وحده والدم على وجهه وكان الناس يسألونه عن ذلك فيقول:

حدث حادث ثم أمر بالطبيب فجيء به ثم نقل إلى المستشفى وتوفي بعد ذلك بأيام.

حدث هذا الحادث... ولم يكن فيه شهود فقد أطلقت رصاصة على يده اليمنى وأخرى على خده الأيسر تحت عينيه فمات في ٢٨ آب سنة ١٩٢٤ وقد سمح بدفنه لأنه كان يقول في الدقائق الأولى:

إن سبب جرحه إنما هو حادث حدث.

إلا أنه بعد أن دفن الكونت شاعت أخبار وكان يعظم شيوعها في كل يوم، والذين أشاعوها إنما هم أصحاب الكونت الخلص، فبدل بخبر الحادث خبر القتل، أي أن الكونتس تصدت لمقتل زوجها، فاهتم بذلك رجال القضاء وبعد التعمق في التحقيق قبض على الكونتس.

* * *

من بين الأصحاب الخلص الذين كان الكونت يفضي إليهم بأسراره السيدة (رناردين ندلك).

ماذا كان يقول الكونت قبل العملية؟

«أطلقت زوجتي علي الرصاص في غرفتنا المغلقة، ولو كان الرصاص أعلى لقتلني ولكن سأشفى فإذا شفيت رتبت أحوالي وملكت إرادتي ومالي».

وكانت الكونتس تجيب رئيس المحكمة عن هذه الشكوى بما يلي: «كنت أرتب خزانتي وإني لكذلك إذْ رأيت زوجي يلعب بمسدس بعد أن نظفه فقلت له:

روجيه! تحفظ فإنه ملآن، فأحببت أن أسحبه من يده فاجتهدت في أخذه، واجتهد في امساكه فخرجت الرصاصة».

على هذه الصورة، جرح الكونت في يده اليمين ولكن كيف يؤول جرحه في خده الأيسر إذا لم يطلق الرصاص مرة ثانية؟

فلم تجب الكونتس عن السؤال وكانت تقول:

' لا أدري ولا يخطر ببالي شيء من ذلك.

مهما أشكلت وجوه هذه الجناية على ما يقول أصحاب التحقيق في القضاء، فإن أمر التصميم على القتل غير مشكل، ولو سلمنا أن الرصاصة الأولى حدثت حدوثاً فإن الرصاصة الثانية لا تخرج إلا بعد حركة من الحركات، وهذه الحركة كما يقول أهل العلم والخبرة تستلزم أعمال الفكر والارادة، وعلى هذا حكمت المحكمة على الكونتس بالسجن مقدار ثماني سنين، معتبرة بعض (الأحوال المخففة) ومن هذه الأحوال أن الكونتس أصابها شيء من الغيرة وغير ذلك، وقد تولى الدفاع عنها المسيو

هانري روبر وهو محام قدير من أكابر رجال الأدب في باريز وقد كان رئيس المحكمة في أثناء المحاكمة يلقي على الكونتس مسائل دقيقة قاصداً على ما يظهر إكراهها على الاعتراف بجنايتها، حتى اعترض على ذلك المحامي هانري روبر، واحتج فأصدرت الوزارة بلاغاً دعت فيه رجال القضاء إلى البعد عن الهوى في الحكم.

* * *

مالنا وللتصدي لدقائق الدعوى؟ فإن هذا من أعمال رجال القضاء.

إن الغاية من قص هذه القصة استنتاج أمر داخل في علم النفس فمن جملة السؤالات التي كان الرئيس يلقيها على الكونتس هذا السؤال:

«كان زوجك يحبك!».

فكأنه كان يريد أن يقول لها:

«كان زوجك يحبك فالواجب عليك أن تحبيه لأنه أنقذك من حياتك المنخفضة».

والدليل على ذلك أن الكونتس كان جوابها:

«وأنا كنت أحبه وقد غدر بي وكنت أصفح عنه».

لا ريب في أن العقل يوحي إليك أن تحب من أحبك وتحسن إلى من أحسن إليك، وتشكر نعمة من أنعم عليك ولا سيما إذا كنت في شظف من عيشك أو شدة من دهرك أو روعة من زمانك أو كنت في حال يحمد معها الموت... فإن النعمة في مثل هذا لا يعدلها شيء حتى أن أضرى الحيوانات تشكر النعم ولاتكفرها ومن اللؤم كل اللؤم جزاء الحسنة بالسيئة ولو كان المرء في هذه الدنيا ينقاد للعقل وحده لما جابه بالمكروه أخاه المفضل عليه، ولا استقبل بالسيئة صاحبه المحسن إليه إلا أن المرء بين

عواطفه وبين العقل تنازع شديد، ولا يستطيع أن يضبط نفسه ويملك هواه من البشر إلا صاحب الخلق الوعر والفكر الصلب فإن الذي قدر أن يقول كما قال عمرو بن عبيد:

«لقد رُضت نفسي رياضة لو أردتها على ترك الماء لتركته» قليل في هذه الدنيا.

فإذا كان في الرجال طائفة عظيمة يعبدون الهوى، فأحرى أن يكون في النساء طائفة أعظم، فإن المرأة أضعف تركيباً من المرء وألين أعصاباً وأطوع للهوى، وأسير مع العاطفة.

أجل لقد أحسن (الكونت دي كرنينون) إلى زوجته واختصها بنعمة، ووطأ لها أكناف الحياة، وذلل لها مصاعب العيش، واستنقذها من عيشتها الدنيا وأحلها المحل الأرفع في الحياة، فترفت ونعمت ما شاءت فكان من المروءة أن تخلص له الحب، وأن تعطف عليه، وتحرص على حياته...إلا أنه شتان ما بين العقل والعاطفة فإن الأمور التي تؤلف بين المرأة والرجل شتى، فالمال وحده لا يُنشئ في القلب محبة خالصة وكثير من النساء يحسن إليهن رجالهن وهن لا يملن إليهم فأنت لو استقصيت في المسائل لرأيت في النساء من يعشن عيشة النعم في دورهن ولكنهن لا يألفن عيشة العفاف فقد تحب المرأة من زوجها عذوبة الحديث أو حسن البزة، أو براعة الجمال، أو تناسب الأعضاء، أو الشجاعة، أو الكرم، أو البخل، إلى غير ذلك من متناقض الأخلاق، ومتباين العادات.

فإذا أحبت المرأة من زوجها خصلة من هذه الخصال وغلب عليها هذا الحب هان عليها كل صعب في الحياة فلا تبالي يومئذ بفقر الرجل أو غناه.

وكثير من النساء يرين في رجالهن خصالاً لا يحمدنها فلا يخلصن الحب لهم، ومنهن من يصبرن فيمتن من غمهن وهمهن ولايعلم بهن إلا الله.

قد يجوز أن تكون الكونتس تزوجت بالكونت طمعاً في المال وحرصاً على الجاه!

وقد يجوز أن الذي يسرها من أمور الدنيا بعد المال لم تجده من زوجها، فلما تلفت ثروة الكونت انقطع أملها منه وذهب رجاؤها، فذهب الأثر الظاهر من محبتها وعادت إلى شنشنتها وطبعها فنفضت يدها منه وأقدمت على قتله على حين يقضي العقل بأن تشاركه في الفقر كما شاركته في الغنى، ولكنك لو قرأت ما قاله «موبسان» في المرأة وهذا ماقاله:

(نفخة من النفخات في قلب المرأة تطير بها كل مطار! هل تعرف المرأة وهل تعلم النساء بأجمعهن حتى الحاذقات الماهرات منهن السبب الذي من أجله يعملن عملاً من الأعمال؟ فكما أن الغصن الذي تهب به الريح يمنة ويسرة لا يدري السبب في ميله معها فكذلك قلب المرأة فإنه يهتز ويعزم على الأمور لأثر من الآثار... أو لعمل العوامل التي لا تدرك ولا تلمس...

وقد يمكنهن إذا كن عاقلات أو فطنات أن يدركن بعد أعمالهن أسباب هذه الأعمال، وأما في وقت العمل فإنهن يجهلن هذه الأسباب لأنهن ألاعيب حواسهن، وخوادم الحوادث والمباآت وتابعات الاتفاقات والعوامل التي تهز روحهن أو لحمهن... وفي مثل هذا الأحوال لا يسمعن كلمة أحد.

لو قرأت هذا كله لعلمت أن البشر أبناء عواطفهم.

فهل يأتي على الإنسان حين من الدهر يغلب فيه العقل على العاطفة!!.

جريدة الميزان في ٢٣ حزيران ١٩٢٥

الظواهر والبواطن

في حرجات أميركا ضرب من قرود الليل تستقبحه العين كل الاستقباح، فهو في ظاهر أمره صلب الخلق، خشن الطبع، على أنه ليس في شيء من هذا كله، فلا يؤذي أحداً، وإنما السبب في قباحة وجهه بروز أنيابه، بيد أنه لا يعض بها، وغذاؤه الثمر.

* * *

وفي آفاق الغوان La Juyane صنف من الخفافيش يهجم على الطير وعلى الحيوانات اللبونة، فيلغ في دمها ولوغاً، وهو من الروامس... أي من الطير التي تطير بالليل، ولا يتصدى لحيوان أو لرجل إلا إذا كان الكرى آخذاً بمعاقد أجفانه، وقد يؤذي الإنسان فيدخل داره فينتخب أعضاءه التي تناسبه كالأذن والأنف وما شاكلهما، فيطير فوقهما، وله أنياب مرهفة، فيقطع بها قطعة من لحم الرجل مخروطة الشكل، فيسيل الدم من الجلد، فيلغ فيه الخفاش ثم يطير وقد قضى لبانته.

ومن العجب أن فريسة هذا الخفاش سواءً أكانت من الحيوان أم من البشر فإنها لا تستيقظ من نومها إذا عضها بنابه، والسر في هذا الأمر أن الخفاش يعيش في البلاد الحارة، فإذا طار فوق رجل نائم حرك جناحيه حوله فيهب نسيم عليل، فيستغرق الرجل في نومه، فينال الخفاش منه ما ينال ثم يطير فلا يشعر المرء بألم إلا بعد حين.

* * *

في البشر كثير من الخلق يشابهون القرود والخفافيش في طبائعهم، فقد تجد في حياتك رجلاً دميماً فتنقبض عنه لقبح وجهه وأنت لا تعرف شيئاً من أخلاقه وأطواره وعاداته وأوضاعه، وقد تجد رجلاً جميل الوجه، نظيف البزة، فتنبسط نفسك إليه وأنت جاهل بدخائله ومذاهبه.

ربما كان الرجل ذو الوجه القبيح والثوب الرثيث كريم الخلق شريف النفس، لا يؤذي بطبعه، ولا يطلب صلاحه بفساد أخيه، ولا يتخلى عن وطنه أو مروءته طمعاً في شيء من نعيم الدنيا، وإنما يلتمس رزقه من أفضل الوجوه، وربما كان الرجل ذو الوجه الصبيح والبرد القشيب يشتمل على الخلق اللئيم، وينطوي على الطبع الخبيث فيعطيك الحلاوة من طرف لسانه، ويروغ منك ولا رواغ الثعالب، فيحفر لك الحفرة، فإذا وقعت فيها وارتطمت نفض يده منك وذهب لا يلوي على شيء.

وضاءة الوجه قد تكون في بعض الحالات عنوان النفس، فقد يكون حسن الوجه حسن الأخلاق طيب الأعراق، وهذا ما يشير إليه الحديث:

«اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه».

بيد أنه لا ينبغي أن يكون هذا الحكم مطرداً، فما كل جميل الشكل بحسن الأخلاق، ولا كل دميم الوجه بقبيح الطباع، والفطن اللبيب في هذه الدنيا من يجرب الأمور ويمارس الدهور فيعرف أسرار الخليقة فلا يرد الموارد حتى تستبين له المصادر.

دخل النخار العذري على أحد الملوك في عباءة، فاحتقره، فرأى ذلك النخار في وجهه فقال:

« ليست العباءة تكلمك، إنما يكلمك من فيها».

قد تستثقل رجلاً وأنت لا تريد البحث عن السبب في استثقالك، وقد تستظرف رجلاً وأنت لا تحاول التنقيب عن سر الاستظراف فتحكم بما يوحي إليك الهوى، والمرء ابن عواطفه وإن كان سلطان العقل أرشد فلا تلبث أن تتبين خطأك فتنزع عن غيك وترجع إلى رشادك.

كان الحجاج يستثقل زياد بن عمر العتكي فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان قال زياد:

«يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم».

فلم يكن بعد ذلك عند الحجاج أحد أخف ولا أحب إليه منه.

إنك لتجد الورع المتقشف فتحسبه من رجال الله وهو أفسق الفاسقين وأفجر الفاجرين، جاء في الحديث «لا تنظروا إلى صومه ولا إلى صلاته ولكن انظروا إلى ورعه إذا أشفى».

ومعناه إذا أشرف على الدينار والدرهم.

وإنك لتسمع الرجل يصف لك حبه لوطنه وإخلاصه الود إلى قومه فإذا برقت الدنانير وأضاءت، تزحزح عن قومه ووطنه فلا يبالي جور الجائرين، واستبداد المستبدين، وإنك لتصغي إلى كلام أشد عليك من وقع السهام في غلس الظلام، فلا تسترسلن إلى ظواهر الأمور دون التغلغل في بواطنها.

جريدة المقتبس ٢٢ آب ١٩٢٣.

داء الأمم

من النباتات نبات حرمته الطبيعة مادته الخضراء، فهو يلجأ إلى النباتات التي تنبسط في جواره، استجلاباً لقوته، واحتفاظاً بحياته، وقد قسم العلماء هذا النبات قسمين:

١ـ قسم يعيش على أجسام الحيوانات أو النباتات.

٢ ـ قسم يعيش على مواد عضوية محلولة.

الفطر داخل في النباتات الطفيلية، تتغلغل أليافه في جوف النبات الممتد حوله، فتؤذيه وتضر به اجتذاباً لغذائها، ومن النبات الطفيلي صنف لا جذور له، فهو ينشب عروقه في عروق النبات الذي يتطفل عليه أو في جذوره، فيكون عالة عليه.

ومن النبات ما يتطفل على ضيفين، فيعيش في الصيف عند واحد منهما، وفي الشتاء عند الآخر.

ومن الحيوانات طائفة كبيرة صلاحها في فساد غيرها، نجتزئ بالاشارة إليها.

* * *

كثير من الناس يجانسون الحيوانات والنباتات الطفيلية في أمزجتهم وأطوارهم، وقد جردتهم الطبيعة من الحسن والاحسان، وعرتهم من الفضل والأفضال، فلما لم يتهيأ لهم ما تهيأ لأقاربهم أو جيرانهم أو أهل

صناعاتهم من بسطة الجاه، أو نضارة في العيش، أو براعة في العلم والأدب عمدوا إلى حسدهم على ما بسط الله عليهم من أكناف النعم، حتى تذهب هذه النعم، فيكون ذهوبها مادة لحياتهم، كما يعمد الفطر إلى انتزاع ما تقوم به حياته من النبات المجاور له.

وكما أن النباتات الطفيلية ترى حولها فروعاً باسقة، وعروقاً راسية، فتهجم عليها حتى تسلبها ما ينقص من نمائها، ويزيد في تلفها، فكذلك المصابون بالحسد، فإنهم يرون في جوانبهم ترادف النعم وتظاهرها، فيتعبون في نزعها من أصحابها، حتى تنتقل إليهم وتلصق بهم.

* * *

يبرع عالم من العلماء، أو كاتب من الكتاب، أو شاعر من الشعراء، فيبذلون مهجهم في إضاءة العقول، وتهذيب القلوب وإيناس الخواطر، ويسهرون في استخراج اللالئ، واستنباط الحكم شغفاً بالعلم والأدب، فيتصدى لهم جماعة من أهل صناعتهم، يعجزون عن مزاحمتهم، ويتحسرون على منافستهم، فيتضافرون على تعفية آثارهم وحط دعائمهم.

ويثري رجل من الرجال، وقد طلب المال من أفضل الوجوه، فيتأنق في لبوسه، ويتقلب في طيب عيشه، ويتبسط في جاهه، تحديثاً بنعمة ربه، فتظهر عليه آثار النعم، ويعرف ذلك في هيئته وبزته فيتفرغ له حسود لم يجتمع له من أسباب اليسار ما اجتمع لمحسوده ويقول:

«جمع المال حراماً، ومنعه أيتاماً، وغلب عليه محاويج أقاربه».

* * *

همُّ الحاسد أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها، فليس يهدأ باله ولا ينام جشعه ولا ينفعه عيشه، ولايبرد غليله.

إذا رقد اقض عليه مضجعه فلا يملكه غمض الليل، حياتك موته، وصفاؤك كدره ونعيمك بؤسه، إن حضر مدحك ذمك، وإن سأل الناس عنك همزك، تأججت في جوفه نار لا يخمدها إلا ارتحال النعم عنك واختلجت في صدره هموم لا يدفعها إلا انتزاع الفضل منك، كمالك شجى في حلقه وأدبك قذى في عينه.

قال بعض الاعراب: ما رأيت ظالماً أشبه مظلومه من الحاسد، نفسٌ دائمٌ وقلبٌ هائمٌ وحزن لازم.

وقال سليمان التميمي: «الحسد يضعف اليقين، ويسهر العين، ويكثر الهم».

وقال بعض الكتاب الفرنسيين:

يرى الحاسد صغر قدره، وخبوَّ ضيائه، وينظر إلى عظم قدر المحسود، وسطوع شعاعه، فيؤلمه هذا الصغر ويؤذيه هذا الخبو، فالحسد سم القلوب يقتل المبتلى به ويحمله على أشد الأذى، فهو أعدل الأخلاق وأظلمها... أما وجه ظلمه فإنه يدفع المتخلق به إلى الهجوم على الأبرياء والنيل منهم وأما وجه معدلته فإنه يقلق صاحبه ويعذبه عذاباً أليماً.

أيها الحاسد!

أفتحسد الفاضل على فضله؟

لِم لا تجتهد في الوصل إلى ما وصل إليه، أفتحسد الشمس على ضيائها الذي تستضيء به في ظلماتك، اقترب من نورها واقتبس منه: انقع

غلتك من المورد العذب الذي يروي تربتك بدلاً من أن تتمنى اطفاء النور واستنزاف المورد.

* * *

الحسد مرض من أمراض النفس؛ علاجه عسر وصاحبه ضجر، يغلب على النفس فلا تستطيع كتمانه قال الجاحظ:

«وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه؛ وتخوّص عينه، واخفاء سَلامه والاقبال على غيرك، والأعراض عنك ؛ والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك».

يقدح الحسد في صدر صاحبه فيتمنى أن يتفرد بالفضل وأن لا يشاركه أحد.

قال معاوية:

«كل الناس أقدر أن أرضيهم إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها».

والحسد في العلماء أكثر منه في الجهلاء، وفي المتجانسين في الصناعات أظهر منه في المتباينين فيها، وفي الأقارب والأصدقاء أفشى منه في الأباعد والأعداء. قال يحيى بن سعيد:

«من أراد أن يبين عمله ويظهر علمه فليجلس في غير مجلس رهطه».

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري:

«مر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا».

قد يحمل الحسد الناس على التنافس في معالي الأمور إلا أنه منه تتولد العداوة فهو سبب كل قطيعة، ومنتج كل وحشة ومفرق كل جماعة

وقاطع كل رحم من الأقرباء، ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الحلفاء.

ومن العجب أن الإنسان يحسد على بأسائه كما يحسد على نعمائه، قال الأصمعي:

كان رجل من أهل البصرة بذياً شريراً، يؤذي جيرانه، ويشتم أعراضهم فأتاه رجل فوعظه، قال له:

ما بال جيرانك يشكونك، قال إنهم يحسدونني.

قال له: على أي شيء يحسدونك؟

قال: على الصلب.

قال: وكيف ذاك؟

قال: أقبل معي، فأقبل معه على جيرانه، فقعد متحازناً فقالوا له: مالك؟

قال: طرق الليلة كتاب معاوية أنِ أصلب أنا ومالك بن المنذر وفلان وفلان، فذكر رجلاً من أشراف أهل البصرة، فوثبوا عليه وقالوا: يا عدو الله! أنت تصلب مع هؤلاء، ولا كرامة!

فالتفت إلى الرجل فقال: أما تراهم قد حسدوني على الصلب، فكيف لوكان خيراً!

* * *

إذا أراد الله أن ينشر فضيلة أوشكت آثارها أن تذهب، أكثر من حسادها حتى تستفيض في كل أفق، ويتحدث بها الناس في كل ناد.

لم يحسد أحد من الشعراء على قدر ما حسد المتنبي، فقد نال شعراء بغداد من عرضه، وتباروا في هجائه وأسمعوه ما يكره، وتماجنوا به فلم يحبهم ولم يفكر فيهم ؛ وقيل له في ذلك فقال:

إني فرغت من أجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرين غرَوْا بذمي
ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مرٍّ مريض
يجد مراً به الماء الزلالا

فلما مات المتنبي سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر وكادت الليالي تنشده، والأيام تحفظه حتى قال الثعالبي:

فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين.

ما أتعب بال الحاسد، وأهدأ قلب المحسود!!.

جريدة المفيد ٥ شباط ١٩٢٤

خطاب ٦ أيار

أيها السادة:

في قرية من قرى غوطتنا الغنّاء سنديانة رمت ظلالها على مقبرة هذه القرية، فلم تشأ أن تحرم أبناءها هدوء الفيء بعد موتهم وقد عاشوا كل أيامهم في هذه الأفياء الهادئة، على قشر هذه السنديانة آثار كثيرة لا تخطر ببال أحد، إنها آثار مدافع وطيّارات ودبّابات، ولكن هذا كله لم يقتل الشجرة، فقد بقي أصلها في الأرض وفرعها في السماء، في كل يوم يزداد نموها، فإن أبناءها الذين عطفت عليهم بعد موتهم فأظلتهم أغصانها عطفوا عليها في قبورهم، فغذوها بعظامهم البالية، فما حرموها غذاءها، ولا حرمتهم ظلّها.

لقد تراءت لي في هذه السنديانة أيها السادة صورة دمشق نفسها، إن هذه الشجرة عاشت بعظام الموتى وبرفاتهم، فلم ينل الأذى منها منالاً، ودمشق في هذه العشرين سنة نابتها نوائب وبقيت خالدة على الرغم من نوائبها لأنها تعيش بروعة ماضيها، وبقوة أضاحيها.

ففي الموتى قوة للأحياء، ومن ظلمات الموت يطلع نور الحياة، فكم مرةٍ حاولوا أن يقتلوا وطنكم فعاش، وأن يقصروا آجاله فطالت، لأنه يمثل فكراً خالداً لايموت.

ما هو هذا الفكر؟

من ثمانين سنة ونيف خطب شاعر فرنسا في ذلك العصر وهو «فيكتور هوغو» في جماعة من أهل «بولونية» يحيون ذكرى ثورتهم فقال لهم: «إذا دفن الظالمون شعباً من الشعوب في قبرٍ فما الذي يصنعون، أيظنون أنهم دفنوا في هذا القبر شعباً؟

إنهم لم يدفنوا فيه إلا فكراً من الأفكار، فالقبر لا شأن له في الذين لا يموتون، والأفكار خالدة لا تموت، يا رجال الوطن! الشعب ليس بلحمٍ، الشعب إنما هو فكر من الأفكار.

ما هي بولونية؟ إن هي إلاّ الاستقلال.

ما هي ألمانية؟ إن هي إلاّ الفضيلة.

ما هي النمسة؟ إن هي إلاّ البطولة

يا رجال الوطن! في اليوم الذي يموت فيه الاستقلال، والفضيلة والبطولة، في مثل هذا اليوم تموت بولونية وألمانية والنمسة، في مثل هذا اليوم يضمحل روح العالم.

ولكن روح العالم إنما هو الله عزَّ وجل!

يا رجال الوطن!

اشربوا على ذكر الفكر الذي لا يموت!

اشربوا على ذكر الشعوب التي تبعث من القبور!.

أيها السادة:

إذا كانت القبور عاجزة عن أن تطوي في ظلماتها فكراً من الأفكار، فإن القبور التي اشتملت على شهداء هذا الوطن من عشرين سنة عاجزة عن أن تطوي في ظلماتها الفكر الذي يمثله هؤلاء الشهداء.

إن هذه القبور لا تحتوي على لحم ولا على عظم ولا على دمٍ، إنها تحتوي على شيء أبقى من اللحم ومن العظم ومن الدم، إنها تحتوي على فكر خالدٍ لا يموت، وهو فكر التضحية.

وإذا كانت (بولونية) تمثل الاستقلال، و(ألمانية) تمثل الفضيلة و(النمسة) تمثل البطولة، فإن سورية أيها السادة على صغر شأنها وعلى حقارة وضعها تمثل التضحية.

هذا فكر دمشق، هذا فكر سورية كلها، هذا الفكر الخالد الذي لا يموت، قد يقتلون أصحابه، أو ينفونهم أو يسجونهم ولكنه يبقى خالداً على وجه الدهر لا سبيل إلى قتله ولا إلى نفيه ولا إلى سجنه!

من عشرين سنة وهذه الأرض التي بلاها الله بكل نوعٍ من أنواع المصائب تنبتُ الأضاحي في كل بقعة من بقاعها، في ساحة مرجتها، وفي ميسلونها وغوطتها وفي سهولها وفي جبالها، فكأن هذا الحور النابت على ماء ميسلون، وكأن هذا الزيتون الناشيء على ماء الغوطة لم يُروَ إلاّ من دم هذه الأضاحي، ولم يشبع إلاّ من رفاتها.

من عشرين سنة وهي تخرج من مصيبة لتقع في مصيبة، تدفن طائفة من شهدائها لتنحر طائفة، فلا يكاد ينشف لها دمع حتى يبللها دمع!

من عشرين سنة أيها السادة وسورية تذوق مرارة في سبيل هذا الفكر الخالد الذي تمثله، لقد جربوا في قتل فكرها كل تجربة، أمة جربت المشانق، وأمة جربت النفي والسجن، ثم جربت شيئاً أمضَّ من النفي ومن السجن، وهو إفقار الشعب حتى يموت من الجوع فلا يسمع له حس وطني، ولا يرى له أثر قومي، ثم جرَّبت شيئاً أمضَّ من الافقار وهو إفساد الأخلاق، استغفر الله.

إن الأخلاق الصالحة لا يفسدها المفسدون، وإنما استعانت هذه الأمة بضالين مضلين، فاسدين مفسدين، جرَّدتهم الطبيعة من خصائص البشرية وأفرغتهم في قوالب الحيوانية، وإني لأظلم الحيوان إذا شبهتهم به، لأن له حساً وشعوراً وعاطفة، ولكن هذه الطبقة من الجماد لا حس لها ولا شعور ولا عاطفة، ما خلا حس الأذى وشعور الضر، وهي تستخدمهما في قتل الفكر الخالد الذي تمثله سورية من عشرين سنة، فلم تعطف على هذا الوطن الذي وجد رجالها يتامى فأواهم، ووجدهم ضالين فهداهم، ووجدهم عائلين فأغناهم فكان جزاء هذه الحسنات كلها أن بغوا به الغوائل، وحفروا له الحفر متزملين في لباسٍ ظاهره تيجان العرب، وباطنه برج من ضلالٍ مبين.

أيها السادة:

إن هذه الطبقة من الجماد التي يستعينون بفسادها، وضلالها، وبنفاقها، وبشرِّها، و بمذبها، هي التي علّقت مشانق ٦ أيار، وهي اليوم تحاول أن تعلق مشنقة هذا الوطن حتى تنعم بشقاوته، وحتى تغنى بفقره، وحتى تعيش بموته!

أيها السادة:

إننا لا نبالي بفساد الفاسدين وبضلال الضالين، فإن لسورية نصيباً من الحياة، وأنها ستحيا، ولكننا نعجب من أُمةٍ تباهي بأدبها وبثقافتها، إننا نعجب من أمةٍ ملأت مدنها وشوارعها ومتاحفها بكل أثر وطني ثم تناقضت أعمالها وثقافتها، وتنافرت سياستها وأدبها، ثقافة تدعو إلى المثل الأعلى في الحياة، وأعمال لا تعلو عن المثل الأدنى في هذه الحياة، أدب يتغنى بالحرية وسياسة تقتل الحريات، إن هذه الأعمال وهذه السياسات

إذا طال أمرها ألقت على الأدب وعلى الثقافة ظلمات بعضها فوق بعض حتى لا يطمح إليهما بصر في العالم.

أيها السادة:

كل هذا لا نبالي به، إذا عجزت الطيارات والدبّابات والمدافع عن اقتلاع سنديانة، فإن النفي، والسجن والإفقار عن اقتلاع وطن جرَّ وراءه أحقاباً طويلة، وطوى أمماً شتى أعجز وأضعف.

أيها السادة:

ارفعوا رؤوسكم بهذا الوطن الذي لا يموت!

تأبين الشيخ رشيد رضا

نقتطف هنا بعض مقاطع من الخطاب الممتاز الذي ألقاه شاعر الشام الأستاذ شفيق بك جبري في حفلة تأبين فقيد العرب والاسلام المرحوم الشيخ رشيد رضا ففي المقاطيع الباقية صورة صحيحة لأمثال صاحب المنار الذين يعيشون مضطهدين ويموتون مكرمين.

كيف نهدم العبقريات:

من نكد الدنيا على هذه البلاد أننا لا نفكر في رجل من رجالنا الطيبين إلا بعد أن يذهب بين سمع الأرض وبصرها، أما في حياته فإننا لا نقصر في خدش جلده وخمش وجهه، إننا لا نقصر في تنقصه من مجامع أطرافه، سواء أكان هذا الطيب من رجال العلم أم من رجال الأدب أم من رجال السياسة، فإننا نتضافر على تهديمه حتى لا يسمع له حسن.

وإذا عجبت من شيء فإني أعجب من نشوء العبقريات في ديار هذا شأنها في هدم كل عبقرية، كيف ينبت الفضل في منابت لا جزاء فيها ولا شكورا؟

إننا نسكت عن أعمال الأراذل ونتزلف إليهم، ونتملق لهم، وهم أصل كل شر في هذه البلاد، ومصدر كل أذى، أما الأفاضل فإننا عليهم قلب واحد،نناهضهم ونضايقهم حتى يخفت صوتهم، وحتى يهمد حسهم، وحتى يجمد طبعهم، فيطيب حينئذٍ عيشنا، وتقر أعيننا!

لم يسلم الفقيد من ألسنتنا:

لا يخطر ببالي أيها السادة أني جلست مجلساً أتى فيه أهلـه علـى ذكـر السيد رشيد رضا وسلم من ألسنتهم، أما اليوم فقد أجمـع المسـلمون علـى أن الزاوية التي بقيت في الاسلام بعد وفاة هذا العالم لم يدخلهـا أحـد مـن العلماء.

إننا لا نعرف الفضل إلا بعد ذهابه ولولا أن السيد رشيد رضا كـان يقدر علمه حق قدره، ويعلم درجة تبسطه في الشريعة حق العلم، لولا أنه رحمه الله كان كان لا يبالي بنهش الناهشين، ولسع اللاسعين لما كتب لـه أن يخلد هذا الخلود.

خصائص السيد رشيد رضا:

قد يكون للسيد رشيد رضا خصائص شتى يصعب عليَّ أن أحيـط بوصفهـا في مثـل هـذا المقـام، ولكنـني إذا جـاوزت الكـلام علـى هـذه الخصائص فإني لا أجاوز الاشارة إلى واحدة منها تكاد تكون جملة فضله، فقد كان مستقلاً في علمه وفي خلقه يتناسق من هذا الوجه عقله وروحـه، وهذا التناسق هو الذي يجعل له هذه المنزلة في العيـون فلـم يعـل في علمـه وينحـط في خلقـه... فهـو لا يشـبه بعـض العلمـاء الذيـن يسـمو علمهـم وينخفض خلقهم، فيغطي انخفاض هذا الخلق على سمو هذا العلم.

استقلاله وعدم جموده:

كان السيد رشيد رضا مستقلاً في علمه فلم يكن من المقلديـن الذيـن يجمدون على ما وجدوا عليه الأولـين، فهـو لا يدخـل في مذهـب هـؤلاء الذين يقولون: «أنّا وجدنا آباءنا على أمة، وأنا على أثارهم مقتدون».

فقد كان يعلم أن التطور مـن دلائـل الحيـاة، وأن الاقتصـار علـى مـا ألفينا عليه آباءنـا إنمـا هـو نقـص في الادراك، وانحطـاط في العقـل... فـإن الاسلام صريح في حض المسلمين على هذا التطور:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾.

فالسيد رشيد رضا كان يعمل بكلام الله عز وجل، لأن الاسلام ما كان في حال من الأحوال يدعو أهله إلى الخروج عن قواعد الحياة وشروطها، وأعظم هذه القواعد وأجل هذه الشروط الانفلات من الجمود، فالجمود على ما وجدنا عليه أباءنا معناه، القهقرى في الحياة، وحاشى للاسلام أن يدعو أهله إلى الرجوع القهقرى.

استعمال العقل في أمور الدين:

ولا شك أيها السادة، في أنكم تدركون أن الأنفة من الجمود تستلزم إعمال العقل فالسيد رشيد رحمه الله كان يلجأ إلىالعقل وحده في دينه، فكان يأخذ دينه عن كلام الله عز وجل وعن كلام الرسول ﷺ، و لم يربط بمذاهب العلماء غير المجتهدين، أو بآراء بعض المتكلمين والفقهاء أو بطائفة من روايات الكذابين والضعفاء، هذا شأنه حتى أدق الأمور كتقسيم كلام الله تعالى، أو كخلق القرآن وما شاء به ذلك فكان في تفسيره وتأويله يرجع إلى العقل وحده فيفسر الآيات، ويؤول الأحاديث طبقاً ما تظهر به حقيقة الدين، فهو من هذه الناحية من أكبر المدافعين عن الاسلام فقد قضى حياته في رد الزور والبهتان عن الدين، والتنديد بالسياسة الأوربية التي تحاول أن تطفئ نوره، وإيقاظ المسلمين وحثهم على تحسين أحوالهم، واصلاح مجتمعهم.

خلوده:

أظن أيها السادة أن هذه الأمور على قلتها كافية أن تجعل السيد رشيد رضا في عصر مثل عصرنا هذا ضعف فيه الاسلام وانحطت فيه الأخلاق، في مقدمة العلماء الخالدين، فهو يشبه طائفة جليلة من العلماء المتقدمين من حيث استعماله العقل في أمور الدين، وأنفته من الجمود، وتجرده للدفاع عن حقيقة الاسلام، ولرد الأباطيل والأضاليل، وتفرغه

لاصلاح المسلمين، فهو مستقل في عقله، مستعمل حرية هذا العقل في الدين، لأن الاسلام ليس فيه شيء من التقييد، فهو بسيط مثل هذه البيئة التي ظهر فيها.

تناسق علمه وأخلاقه:

ولكن استقلال العقل أيها السادةقد تبعه استقلال الخلق، فاستحكم في السيد رشيد رضا تناسق حياته العقلية وحياته الخلقية.

إننا في عصر أيها السادة حاجتنا فيه إلى الأخلاق أكثر من حاجتنا إلى العلم، إننا في عصر نجد فيه أن مصائبنا التي أصابتنا في هذه السنين الأخيرة، إنما أسبابها الأخلاق...ولا أبالغ إذا قلت: الأخلاق وحدها.

كانت عمامته برجاً من الهدى:

لم يكن السيد رشيد رضا من هؤلاء العلماء الدجالين الذين يلمسون الرذيلة بأيديهم، ويرونها بأعينهم، ويسمعونها بآذانهم، وهم أقرب الناس من أصل هذه الرذيلة، فلا ينهون عن الفحشاء والمنكر ولا يسمع لهم صوت في ردع الفاسدين المفسدين وكف الضالين المضلين حرصاً على سفساف الدنيا، وإنما السيد رشيد رضا كان من العلماء الذين لا تأخذهم هوادة في الدين، فقد كان يستطيع أن يبقى في دمشق بعد انسحاب الملك فيصل رحمه الله، وهو رئيس أول مؤتمر وطني في هذه البلاد،و أن يتاجر بعلمه وبخلقه، فتنقاد إليه الدنيا كما انقادت إلى غيره، ويملأ داره بالصينيات والعجميات، ويملأ بيت ماله بالعثمانيات وبالانكليزيات، وتأتيه الهدايا من أهل المدن وأهل القرى، ومن الأجانب أنفسهم، ويزدحم الناس على تقبيل يديه ورجليه، وعلى التبرك به، كان يستطيع أن يصل إلى هذا كله كما وصل إليه غيره، على شرط واحد أن يرى الرذيلة ويسكت عنها، ولكن له ديناً يمنعه من التدجيل، وخلقاً ينزهه عن حطام الدنيا.

كان يستطيع السيد رشيد رضا أن يبقى في دمشق من خمس عشرة سنة، وأن يبيع دينه وضميره كما باعهما غيره، وأن يتقلب في أكبر منصب في الدولة كما تقلب فيه من إذا قيس به كان كالجهل يقاس بالعلم، و الرذيلة تقاس بالفضيلة، ولكن هذه العمامة على رأسه كانت برجاً من الهدى... و لم تكن برجاً من الضلال!

أيها السادة:

هذا السيد رشيد رضا!

كان عالماً صحيحاً... والعلم الصحيح يرفع أهله عن التدجيل.

كان مسلماً صحيحاً... والاسلام الصحيح ينزه أهله عن أن يبيعوا دينهم وضميرهم. هذا هو السيد رشيد رضا الذي كانوا يقولون فيه إنه من الأغنياء الموسرين.

أما اليوم فإن الكتب لا تزال تأتينا من إخوانه في مصر لنحث الناس على دفع ما تراكم عليهم من ابدال الاشتراك في مجلته حتى يستطيع أهله أن يدفعوا عنهم ما يركبهم من الديون.

أيها السادة:

هذه هي الأخلاق!

حفل تأبين شيخ الوطنية
أحمد القضماني

أيها السادة:

من ثلاثة شهور مات (بوانكاره) أحد رؤساء الجمهورية في فرنسا فأبنه (هريو) أحد وزراء فرانسا في هذا اليوم وقد كان تارة خصمه، وتارة مؤازره... وختم تأبينه بهذه العبارة:

«قد تطول المناقشة في أعماله لأن هذه الأعمال يرجع الحكم فيها بعد اليوم إلى التاريخ، ولكن حقيقة واحدة لا يستطيع أحد أن يناقش فيها وهي:

«أنه خدم بلاده على قدر مجهوده حتى جاوز في الخدمة كل مجهود».

لم يجد هريو صفة أبلغ من هذه الصفة فجعلها خاتمة المقال لتكون أعلق بالأذهان! وقد رأيت أن افتتح كلمتي في تأبين شيخنا الجليل بما ختم به هريو كلمته، فإن خدمة البلاد إذا كانت أمراً واجباً في أمة تتمتع بأوسع الحريات فهي في أمة مثل أمتنا تتمتع بأوسع العبوديات أمراً أوجب!

قد يكون لهذه الشيخوخة المباركة صفات غالبة، ولكني أقتصر منها في هذا المقام على صفة واحدة وهي خدمة البلاد.

أما ما عرف عن شباب هذه الشيخوخة من كرم في النفس، وشجاعة في الخلق فقد أتعداه لأن ماعرف عن شيخوخة هذا الشباب من فنائها في خدمة البلاد قد عفى على كل كرم وعلى كل شجاعة!

ولكني بعيد عن أن أفصل هذه الخدمة تفصيلاً وإنما أتخذ منها عبرة نعتبرها، أو درساً نستفيده ويكفي تأبينا ً هذه الشيخوخة التي فنيت في الخدمة أن تكون لنا عبرة ودرساً في مثل هذه الأيام، فقد تكون في غنى عن بلاغة كل تأبين... ولا تكون في غنى عن استلهام أمثال هذه العبرة وهذا الدرس.

أيها السادة:

لأننا في أيام سفلت فيها نفوس ورذلت فيها أخلاق، ووطأت فيها طبائع، وهانت فيها كِرامات، وبيعت فيها ضمائر، إننا في أيام تكالب فيها رجال، أستغفر الله بل أنصاف رجال، بل لا رجال، على كاذب من الجاه وعلى خسيس من المال وعلى دنيء من المنزلة، إننا في أيام أيها السادة، انسلخت فيها طائفة وطيئة من أفق البشرية واندمجت في أفق الحيوانية طمعاً في حُطام الدنيا باعوا به وطنهم!

إننا في مثل هذه الأيام أيها السادة نحتاج إلى عبرة الأحياء من الموتى لنؤدب بها الموتى من الأحياء!

استخدم أحمد القضماني كل ما رزقه الله من سعة في الجاه، وكرم في النفس وشجاعة في الخلق فحبس هذا الرزق الطيب الحلال على كل فكر وطني، وعلى كل مبدأ وطني، وبذل كل مايقدر عليه في سبيل هذا الفكر، وهذا المبدأ، حتى جاوز في البذل كل مجهود فكان تعب شخوخته في حب الوطن راحة لها، وكان سهرها نوماً... وكان اضطرابها اطمئناناً حتى لقيت ربَّها بأحسن ما تلقى به شيخوخة ربها.

هذه هي الشيخوخة الهادية المهدية لا شيخوخة ضالة مضلة ترى راحتها في تعب البلاد، ونومها في أرق أهل هذه البلاد، وهدوءها في ثورتهم، واطمئنانها في اضطرابهم حتى تلقى ربها بأقبح ما تلقى به شيخوخة ضالة مضلة ربها!

أيها السادة:

كنا لا نحتاج إلى أمثال هذه العبرة وهذا الدرس لو أن الحرية التي ولدها ١٤ تموز فطبّلوا وزمّروا من أجلها كانت صادقة في خواتيمها محمودة في عواقبها، أما اليوم فليخجلوا من التنويه بها.

أي خيانة لا يكافئون عليها أهلها!

أي تجسس لا يقربون أصحابه!

أي سرقة لا يحمون أربابها!

أي رشوة لا يتمسكون بذويها!

أي جهالة لا يحسبونها فضلاً!

هذه هي الأخلاق العالية التي جاؤوا يعلموننا إياها ويدربوننا عليها ويأخذون بأيدينا في سبيلها.

ولكن الله تعالى لم يخل البلاد من رجل مثل أحمد أفندي القضماني تنعم بأخلاقه في أثناء شقاوتها بهذه الخيانات، وبهذه الجهالات والضلالات، ولولا أخلاق مثل أخلاق أحمد أفندي القضماني لكان بطن الأرض خيراً من ظهرها.

أيها السادة:

إن هذه السياسات التي يحلم بها أصحابها لخنق الحرية... إن هذه السياسات التي يحلمون بها لمضايقة كل فكر وشعور، وكل عاطفة وإرادة، إن هذه السياسات، كل يوم يأتي يدني آجالها لأن في الشرق قومية هائجة، ووطنية ثائرة، وحياة مزدحمة تهدأ حيناً، وتعصف حيناً والذين يرون هدوءها ولايرون عصفها، إنهم لفي ضلال مبين.

إن أمة من شيوخها أحمد أفندي القضماني يهب لها قلبه ولسانه ويعطبها راحته ونعيمه، ويفرغ عليها شيخوخته...إن أمة مثل هذه الأمة روي ترابها من دم كهولها، وشبابه، وشب من عظامهم، وحفل ماضيها بكل روعة، إن أمة مثل هذه الأمة لا تخنق فيها حرية ولا ينجح فيها رذيل، إن للباطل جولة ثم يضمحل!.....

* * *

أمّا هذه الشيخوخة التي كانت لنا في ليلتنا عبرة، ودرساً، فلتهدأ في مرقدها فما أريد أن أزعجها بأكثر مما أزعجتها به، وأما أهلها وذووها فإذا قيل لهم:

ـ أين عميدكم؟

فليقولوا:

ـ مات في خدمة البلاد...وليرفعوا رؤوسهم على وجه الدهر!؟